البعد السُّنَنِي في كتاب التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة النابلسي

The sunani dimension in Mohammed Izzat Darrouza Al-Nabolsi's book Al-Tafsir El-hadith

نصيرة طالب[1]*، بن زيد باي[2]

مخبر الدّراسات الشرعية

[1]**جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان (الجزائر)** nassira.taleb@univ-tlemcen.dz

[2]**جامعة أبي بكر بلقايد– تلمسان (الجزائر)** benzid.bey@mail.univ-tlemcen.dz

تاريخ الاستلام: 2024/01/31 تاريخ القبول: 2024/10/06 تاريخ النشر: 2024/12/31

ملخص:

تهدف الدراسة إلى عرض طريقة المفسّر الأديب والمؤرّخ محمد عزة دروزة النابلسي (1887م-1984م) في التعامل مع آيات السنن الإلهية من خلال كتابه "التفسير الحديث: ترتيب السور حسب النزول"، وذلك من أجل إظهار معالم المنهج الذي اتبعه المؤلف في تفسير الآيات السننية؛ وفي سبيل تحقيق هدف البحث تم تتبع ما أمكن من الآيات ذات الصلة بالموضوع، للوصول إلى القول بأن دروزة يفسر آيات السنن الإلهية بأسلوب موجز وقوي، وبلغة مؤثرة ، ليسهل عليه تقرير مبادئها وترسيخها في ذهن القارئ، وكذا الحث على السير وفقها، وهو أيضا يجتهد في ربطها بالمسائل والقضايا الاجتماعية والأخلاقية في واقعه، كما أنه يستخلص دائما من تلك الآيات المبشرات الإلهية بالنصر والتأييد للأمة الإسلامية، خاصة في عصر تكالبت عليها الأمم الأخرى، وضعفت همم أبنائها.

الكلمات المفتاحية: السنن الإلهية؛ التفسير الحديث؛ محمد عزة دروزة.

Abstract:

The study aims to present the method of the writer, historian and interpreter Muhammad Izza Darwaza Al-Nabulsi (1887AD-1984AD) in dealing with the verses of the divine Sunnahs through his book "The Modern Interpretation: Arranging the Suras according to the Revelation."

This is in order to show the features of the approach followed by the author in interpreting the verses that included a hadith about the laws of God in the universe ; In order to achieve the goal of the research, as many verses as possible related to the topic were traced; and I reached to say that Darwazah interprets the verses of the divine Sunnahs in a straightforward manner without exaggeration, to make it easier for him to establish their principles, urge to follow them, and link them to social and ethical issues and issues in his reality, and he always extracts from these verses divine heralds of victory and support for the Islamic nation, especially in the era of Other nations rallied against it, and their children's concerns were weakened.

Keywords: Al-sunan El-ilahiya; Al-Tafsir El-hadith; Mohammed Izzat Darrouza.

مقدمة

الحمد لله علّام الغيوب، غّفار الذنوب وكاشف الكروب، أنزل على عبده كتابا تطمئن بتلاوته القلوب، وتستنير بتدبره وفهمه العقول؛ والصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود والحوض المورود، وعلى آله وصحبه الركع السجود، ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد كان القرآن ومازال دستور المسلمين الخالد، ومصدر عِزِّهم الدائم، لأن الله تعالى بيّن لهم فيه أصول النجاة ومفاتيح السعادة والفلاح، كما جلّى فيه أسباب الهلاك وسبل الشقاء، فكان بذلك تذكرة وموعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ ولذلك بذل علماء المسلمين وُسعهم في تدبُّره، واستخراج درره ونفائس معانيه، فأنتجوا مصنّفات متنوعة حوت علوما عديدة؛ وإن كان أصحابها يتفقون في المقصد الأول من تدوينها والمتمثل في بيان مراد الله تعالى من كلامه، إلا أن اتجاهاتهم ومناهجهم والآلِيّات التي وظّفوها في ذلك تختلف باختلاف تخصُّصاتهم وعصورهم وأوطانهم.

وعلماء فلسطين لم يبخلوا على المسلمين بإسهاماتهم العلمية في حقل الدراسات القرآنية، وبمُدوّناتهم التي أفردوها لتفسير آيات القرآن الكريم، على غرار التفسير الحديث الذي ألّفه محمد عزة دروزة النابلسي.

إشكالية البحث:

لقد كان موضوع السّنن الإلهية محل اهتمام عدد كبير من العلماء والباحثين خاصة في العصر الحديث، وهذا العلم قد شغل حيِّزا مُهمّا من كتاب التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة؛ من هنا جاءت مادّة هذا البحث للإجابة على الإشكالية الآتية:

ما مدى عناية محمد عزوة دروزة بعلم السنن الإلهية وتوظيفه له في تفسير القرآن الكريم؟

وهي إشكالية تندرج تحتها جملة من التساؤلات الفرعية:

- ما المقصود بالسنن الإلهية؟
- من هو محمد عزة دروزة؟ وما المنهج الذي اتَّبعه دروزة في تفسيره؟
- كيف تعامل عزة دروزة مع آيات السنن الإلهية، وكيف وظّفها في تفسيره؟

أهداف الدراسة.

- إبراز القيمة العلمية لكتاب التفسير الحديث، وعرض منهج صاحبه.
- بيان مدى عناية محمد عزة بآيات السّنن الإلهية، والمنهج الذي اتبعه في تفسيرها؛ وكذا الحيز الواسع الذي شغله هذا العلم في كتابه "التفسير الحديث".

الدراسات السابقة:

حظي موضوع السنن الإلهية من جهة، وكتاب التفسير الحديث لعزة دروزة من جهة أخرى باهتمام كثير من الباحثين المشتغلين بحقل الدراسات القرآنية والتاريخية، والمهتمين ببعث الأمة واستنهاضها؛ وقد اعتمدت في هذا المقال على عدد من الدراسات يمكن تقسيمها إلى نوعين أساسين هما:

النوع الأول: هي الدراسات التي اهتم أصحابها بعلم السنن الإلهية، وأهمّها:

1. عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية:

وهو كتاب قيّم في بابه، ويُعد مرجعا مهمّا للباحثين في مجال السنن الإلهية، لأن صاحبه تحدث عن كلّ ما يتعلق بالسنن الإلهية من تعريفات وبيّن أهميتها وقدّم عرضا مفصَّلا لخصائصها وأنواعها، وغير ذلك.

2. أيمن بن نبيه بن غنام المغربي، السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن الكريم، جمعًا ودراسة، رسالة ماجستير، إشراف: أ.د محمد بن عمر بازمول، جامعة أم القرى، السعودية، 2007م: اهتمت الدراسة بالبحث في كيفية الاستفادة من علم السنن الإلهية في تغيير المجتمعات، وإلى ترسيخ مبدأ ضرورة التغيير الذاتي.

وهذه البحوث أفدت منها في الجزء الأول من مدخل الدراسة، المتعلق بالتعريف بالسنن الإلهية وبيان أهميتها وخصائصها.

النوع الثاني: هي البحوث التي أُفردت للحديث عن شخصية محمد عزة دروزة، ولدراسة تفسيره؛ وأبرز هذه البحوث:

1. محمد عزة دروزة، مذكرات محمد عزة دروزة: تحدّث فيه عن سِجِلّه الحافل بمسيرة الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمن؛ وقد استعنت به في ترجمة المؤلف بشكل كبير.

2. فضل حسن عباس، التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث: وهو كتاب خصّص صاحبه قِسما للحديث عن عزة دروزة ولدراسة منهجه في التفسير، وأفدت من هذا الكتاب في ترجمة المؤلف والتعريف بكتابه.

منهج البحث:

اقتضت طبيعة البحث الجمع بين المنهج الوصفي الذي تمّ توظيفه في تحديد المفاهيم وفي التعريف بالمؤلِّف وكتابه، والمنهج التحليلي الذي استعملته في بيان منهج عزة دروزة، واستنباط أسلوبه في التعامل مع آيات السنن الإلهية، كما استعنت بأداة الاستقراء في تتبع ما تعلق بموضوع البحث، وفي عرض نماذج من التفسير الحديث.

خطة البحث:

قسّمت البحث إلى مدخل عرّفت فيه بالسنن الإلهية، وترجمت لمحمد عزة دروزة، ومبحثين، جاء الأول منهما للتعريف بكتاب التفسير الحديث وبيان منهج صاحبه فيه، بينما خُصص الثاني للحديث عن اجتهادات دروزة التفسيرية في تفعيل السنن الإلهية في واقع المسلمين، وفيما يلي الخطة المفصلة:

مقدمة.

مدخل: التعريف بمصطلحات البحث.

أولا: تعريف السنن الإلهية، خصائصها وأهميتها.

ثانيا: ترجمة محمد عزة دروزة.

المبحث الأول: التفسير الحديث ومنهج صاحبه فيه.

المطلب الأول: تعريف عام بكتاب التفسير الحديث.

المطلب الثاني: مصادر دروزة ومنهجه في التفسير.

المبحث الثاني: اجتهادات دروزة التفسيرية في تفعيل السنن الإلهية في واقع المسلمين.

المطلب الأول: أسلوب عزة دروزة في التعامل مع آيات السنن الإلهية.

المطلب الثاني: نماذج من تفسير عزة دروزة لآيات السنن الإلهية.

خاتمة.

مدخل: التعريف بمصطلحات البحث.

أولا: تعريف السنن الإلهية، خصائصها وأهميتها.

لقد حوى كتاب الله مجموعة من القوانين العامة الثابتة التي تنظِّم الكون بما فيه وعبّر عنها باسم السنن، باعتبار جريانها وانتظامها واطِّرادها، وخضوع جميع المخلوقات لها؛ فمن اهتدى إليها وسار وفقها نجى، ومن أعرض عنها هلك، وأصبح عبرة لغيره، وقد اعتنى العلماء ببيان هذه السنن وتفعيلها في واقع الناس، وصنَّفوا حولها المؤلّفات التي تُعرِّف بها وتُجلِّي خصائصها وتبرز أهميتها.

1.التعريف بسنن الله تعالى:

أ. معنى السنة لغة:

(سَنَّ) السين والنون أصل واحد مطّرِد، وهو جريان الشيء واطِّراده في سهولة، والأصل قولهم سننتُ الماء على وجهي أسُنُّه سنًّا، إذا أرسلته إرسالا، ومما اشتُق منه السُّنة، وهي السيرة، وسنة رسول الله ﷺ: سيرته؛ وإنما سميت بذلك لأنها تجري جريا، وجاءت الريح سنائن، إذا جاءت على طريقة واحدة.[1]، وسنّة الله أحكامه وأمره ونهيه... وسنّها الله للناس بيّنها، والسُّنة السيرة حسنة كانت أو قبيحة.[2] قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوٓاْ...إِلَّآ أَن تَاتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْاَوَّلِينَ ﴾ (الكهف:55).

كما أنّ السُّنة تطلق على الطريقة المستقيمة المحمودة، ولذلك قيل: فلان من أهل السنّة، وسَنَّ فلان طرِيقا من الخير يَسُنّه: إذا ابتدأ أمرا من البرّ لم يعرفه قومه، فاستَنُّوا به وسلكوه، وفي حديث رسول الله ﷺ: **"مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ"**.[3] يريد من عمل بها ليُقتدى به فيها."[4]

ممّا سبق نجد أن السنة في اللغة تطلق ويراد بها: الطريقة والسيرة والحكم والوجه والطريق وابتداء أمر والتتابع والاطراد، وهي تعني جريان الشيء أو الحكم أو السيرة على طريقة واحدة بانتظام وتنسيق.

ب. تعريف السنن الإلهية اصطلاحا:

بيّن الله تعالى سُننه في كتابه، وأكّد على ضرورة الانتباه لها، كما حذر من عواقب الإعراض عنها، حيث أوردها في القرآن المكي والمدني، بصيغ متنوعة، وبأساليب مباشرة مستعملا لفظ سنة أو سنن كقوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾(آل عمران:137)، وبأساليب غير مباشرة، أي بذكر ما يدل عليها كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: 11).

وقد عرّفها ابن قيم الجوزية بقوله: "سنّته سبحانه عادته المعلومة في أوليائه وأعدائه بإكرام هؤلاء وإعزازهم ونصرتهم، وإهانة أولئك وإذلالهم وكَبْتِهم."[5]

وعرّفها عبد الكريم زيدان: "معنى سنة الله هي الطريقة المتبع في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"، وقال: "هذا يعني أن معنى السنة هو معنى القانون العام من حيث خضوع أفعال البشر وسلوكهم إلى أحكام هذه السنة." [6]

وبالتالي فإنّ السنن الإلهية تمثّل المنهج العام الثابت في معاملة الله تعالى لجميع عباده وفق أعمالهم وتصرّفاتهم، وإن كان برحمته وحلمه يعفو عن كثير من معاصيهم وخطاياهم.

2.خصائص السنن الإلهية:

تتميز السنن الإلهية بمجموعة من الخصائص جعلتها تكتسب أهمية بالغة في حياة الأمم والمجتمعات، ويمكن إجمال هذه الخصائص في الآتي:

أ. ربّانية المصدر:[7] إن الله تعالى ذكر السّنن في عدة مواطن من كتابه، ونسبها إليه، وجعلها خاضعة له وحده، وهذه الخاصية أهم ما تتصف به السنن الإلهية، حيث يتجلى فيها عدل الله، إذ لا يَدَ لأحد من المخلوقات فيها؛ وتنطوي تحت هذه الخاصية خصائص أخرى كالحكمة والرّحمة.

ب. الثبات والاستمرار: سنن الله لا تتبدل ولا تتغير ولا تتأثر بالأزمنة والأمكنة أو الأشخاص، ومظاهرها دائمة ومستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾ (فاطر:43).

ت. سنن الله عامّة لكل الناس وشاملة لكلّ شؤونهم.

ومعنى ذلك أن السنن الإلهية عامة يسري حكمها على جميع البشر دون تفريق ولا محاباة، بغض النظر عن أديانهم وجِنسيّاتهم، فهي لا تقتصر على فرد دون فرد، ولا على قوم دون قوم، كما أنها شاملة لكل مناحي الحياة' فلم تعالج الجانب الدّيني فقط، بل أحاطت بجميع الجوانب التي تقوم على أساسها حياتنا، بما في ذلك الاقتصاد والتّعليم الحرب والسياسة والعلاقات الاجتماعية بين الأفراد وبين المجتمعات وغيرها.

والسّنن عامة لا تتعرض للجزئيات والتّفاصيل، فهي تعطي مبادئ عامة لحركة الكون والتاريخ، وتوفّر هذه الخصيصة الفرصة لانضمام أكبر قدر من المفردات والأحداث تحتها[8]، وورود السنن في القرآن يدلّ على عمومها، فهي منسوبة إلى الله تعالى خالق كل شيء، كما أنها ترد نكرة في سياق النّفي، وهذا مفيد للعموم في اللغة[9]، كقوله تعالى: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ ﴾ (غافر:85).

ث. الاطراد: الاطّراد يُقصد به التّتابع بانتظام وتنسيق[10]، وإنما كان الاطّراد خاصية للسّنن الإلهية لأنها تجري وفق نَسق ونظام واحد، فهي تابعة لظروف معينة، كلما وجدت تلك الظروف وجدت معها السنن ولم تتخلف، والغاية من ذلك بعث النّفوس على الاتعاظ والاعتبار من الغير.[11]

3.أهمية السنن الإلهية.

يكتسي موضوع السنن الإلهية أهمية بالغة في حياة الأفراد والمجتمعات، لما له من دور فعّال في ازدهارها وتصحيح مسارها وحتى بقائها، ويُفترض أن تُدرّس كعلم مستقل له أدواته وموضوعاته ومقاصده وثمراته، وأن يكون له نصيب في الخطب الوعظيّة والمجالس الإرشادية في مختلف المناسبات، ويمكن إجمال أهميته فيما يلي:

- سنن الله تمثّل النّظام الذي به تنضبط حياة النّاس[12]، ومن وُفّق لمعرفتها، وللعمل عل مقتضاها سلم من العثرات وأمن من المعاصي والزّلات وما يترتّب عليها من ابتلاءات وعقوبات، ومن لم يهتد إليها كانت عاقبة أمره الخسارة والويلات، ثمّ أصبح عبرة لمن يعتبر في كل عصر ومصر.
- تمكّن السنن الإلهية من أخذ العبرة من أحداث الماضي، وتُعين على إدراك أسرار الحاضر، كما تسهِّل التنبؤ والاستعداد للمستقبل، لأن ما يجري في الكون إنما يحدث وفق قانون ثابت لا مجال للعبثية أو الصدفة فيه؛ وقد أكّد رشيد رضا على أهميتها عند تفسير قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾(آل عمران: 137)، حيث قال: "إن إرشاد الله إيّانا إلى أن له في خلقه سننا يُوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يُبَيِّنُون لها سنن الله في خلقه... العلم بسنن الله تعالى من أهمّ العلوم وأنفعها."[13]
- كما أنّ معرفة هذه السنن يُسهم في معرفة أسباب التخلف والهزيمة لأجل اجتنابها، وفي بيان عوامل النهضة والرُّقي للسعي إلى تحقيقها من أجل النهوض بأمتنا.
- السنن الإلهية تبرز جانبا من جوانب إعجاز القرآن وإصلاحه لكل زمان ومكان، وتدبّرها يظهر حكمة الله تعالى وعدله في تعامله مع عباده، لأن هذه السنن لا تحابي أحدا بل تسير باطراد وشمول؛ فالله علّم الإنسان السعي وبيّن له طريق الخير وطريق الشر، وجعل

له منهاجا قويما لحياته، وأوضح له السنن التي تحكم تصرفاته، حتى يكون على بصيرة بعواقب أعماله، والجزاء من جنس العمل.

ثانيا: ترجمة محمد عزة دروزة

1.مولده ونشأته:

محمد عزة دروزة مفكر وكاتب ومفسِّر ومناضل ومؤرّخ وصحفي وأديب قومي عربي فلسطيني[14]، ولد ليلة السبت 11 شوال عام 1305هـ، الموافق آخر شهر يونيو عام 1887م، بمدينة نابلس بفلسطين، والده عبد الهادي بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة (نسبة للدّرازة أو الخياطة)، ووالدته مسعودة بنت بدوي، تلتقي مع والده في جده إبراهيم، كان أبوه وجده تاجرين يملكان مخزنا لبيع الأقمشة والمنسوجات والملبوسات بنابلس.[15]

نشأ وسط عائلة تغلب على أهلها صفة التديُّن، والحرص على ارتياد المساجد، فلم يعرف أيٌّ من شبانها بفسق أو سكر[16]، وصفة التّديُّن تلك كانت منتشرة في كامل نابلس، وقد عاش حقبة انتكاسة الأمة الإسلامية منذ بدايتها، بسقوط الخلافة وتكالب الأمم عليها، كل هذا جعل من محمد عزة دروزة شابّا متديِّنا مواظبا على الطاعات[17]، حاملا همّ إصلاح مجتمعه والنهوض بأمته، شأنه في ذلك شأن كل مسلم غيور على دينه ووطنه.

2.تعليمه:

بدأ عزة دروزة دراسته الابتدائية في مدرسة الشيخ محمد زعيتر الابتدائية الحكومية بنابلس سنة 1895[18]، وفي عام 1898 التحق بالمدرسة الرشدية التي تعادل شهادتها شهادة الثانوية المتوسطة والإعدادية (التي تسمى بروفيه)[19]؛ وقد كان خلال مراحل تعليمه مجتهدا حسن السلوك، فنال شهادته الابتدائية والإعدادية بدرجة عليّ الأعلى[20]؛ كان التعليم في عهده باللغة التركية، فتمكّن منها قراءةً وكتابة وحديثا، وفي المقابل واظب على مجالس تعليم اللغة العربية التي كان يعقدها الشيخ موسى القدومي في الجامع الكبير، فأتقنها وتعلّم قواعدها؛ ولكنّ الظروف الأسرية لدروزة لم تسمح له بمتابعة دراسته خارج نابلس، وبعد

تخرّجه عام 1905 اتجه لمزاولة العمل[21]، وفي الوقت نفسه عمل على تكوين شخصيّته العلمية بنفسه.

3.وظائفه:

شغل محمد عزة دروزة عدة وظائف بعد انقطاعه عن الدراسة، حيث ألحقه والده بعمل حكومي بدائرة البرق والبريد، فعمل بها من 1907 إلى 1914 مأمورا[22]، ثم رُقيَ وأصبح مديرا ثمّ مفتشا فسكرتيرا لديوان المديرية العامة في بيروت سنة 1916، وبعد انتهاء حكم الدّولة العثمانية عمل سكرتيرا في ديوان الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن سنة 1920، ثم رئيسا لمدرسة النّجاح الوطنية الابتدائية والثّانوية من 1922 إلى 1927، وكان خلال إدارته للمدرسة يُلقِي على طُلابها محاضرة أسبوعية في الأخلاق والاجتماع، كما سعى إلى تحسين نُظمها وترقية مناهجها، حيث تخرج في عهده كثير من شباب فلسطين الذين كان لهم دور بارز في الحركة الوطنية الفلسطينية، وفي الوقت نفسه كان يكتب المقالات التربوية والاجتماعية التي نُشرت في مجلات "الكشاف" ببيروت و"المرأة الجديدة" بالقاهرة وجريدة "الجامعة العربية" و"القدس" بفلسطين؛ عمل دروزة بعدها مأمورا لأوقاف نابلس الإسلامية من 1927 إلى 1932، ثم مديرا عاما للأوقاف الإسلامية في فلسطين من 1932 إلى 1937، وبعد عزله من طرف إدارة الانتداب البريطاني اشتغل رفقة أخيه بالتجارة.[23]

4.نضاله السياسي ومؤلفاته:

بدأ محمد عزة دروزة نشاطه السياسي مبكرا سنة 1909، حيث شارك في إنشاء وتنشيط الجمعيات الوطنية والأحزاب السياسية وقام بتأليف الروايات القومية والمسرحيات التي تمجد العروبة، وتسعى للنهوض بها، وكان دروزة المسؤول عن التخطيط السياسي للثورة الفلسطينية التي قامت عام 1936، فاعتقلته السلطة البريطانية عام 1937، لينتقل بعدها إلى دمشق أين اعتقله الفرنسيون بتحريض من الإنجليز رفقة أخيه محمد علي في أواسط 1939، وبعد الإفراج عنه قصد تركيا لاجئا، وقضى بها أربع سنوات، لم يتوقف خلالها عن خدمة القضية الفلسطينية، حتى اشتدّ عليه المرض عام 1948، فتفرّغ للكتابة والتأليف.[24].

أما عن مؤلفاته، فقد ترك محمد عزة دروزة للمكتبة العربية والإسلامية إرثا علميا نفيسا، حيث ألف أزيد من خمسين كتابا في مختلف الفنون، كما أسهم في إعداد الكتب التي كانت تدرس في المدارس العربية بفلسطين، وقد اكتفيت هنا بإيراد بعض كتبه لأن المقام لا يتسع لعرضها كاملة[25]:

أ. الكتب الإسلامية: عصر النبي ﷺ وبيئته قبل البعثة، القرآن المجيد، التفسير الحديث؛ بالإضافة إلى مجموعة مقالات إسلامية نشرت في عدة مجلات.

ب. الكتب الفلسطينية والقومية: القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، قضيّة الغزو الصهيوني، وله مجموعة مقالات سياسية حول القضية الفلسطينية، نُشرت في عدة مجلّات وصحف، بالإضافة إلى عدة روايات تمثيليّة.

ت. الكتب التاريخية: دوّن عزة دروزة عدّة كتب تاريخيّة منها: تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة، مختصر تاريخ العرب والإسلام، دروس التاريخ العربي.

لا شك أن المتصفح لما خلّفه محمد عزة دروزة من مؤلفات يلمس موسوعية الرجل وتبحره في العلوم الإسلامية والاجتماعية والتاريخية، ويلاحظ حرصه الشديد على خدمة دينه ووطنه وأمته.

5.وفاته:

توفي محمد عزة دروزة في دمشق يوم الخميس 26 يوليو 1984، بعد أن قضى قرابة قرن من الزمن في خدمة وطنه، والدفاع عنه بنفسه وقلمه، وفي البحث عن سبل النّهوض بالأمة العربية الإسلامية، فجزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

المبحث الأول: التفسير الحديث ومنهج صاحبه فيه.

قبل الحديث عن منهج عزة دروزة في التعامل مع آيات السنن الإلهية، لابد من إعطاء لمحة عن كتابه والمصادر المعتمدة في تدوينه، ثم الوقوف على قيمته العلمية، وعرض منهجه العام في التفسير، وقد جاءت مادة هذا المبحث لتجلية ذلك.

المطلب الأول: تعريف عام بكتاب التفسير الحديث لعزة دروزة.

أولا: عنوانه، محتوياته ومقاصد صاحبه.

أطلق عزة دروزة على كتابه اسم التفسير الحديث: ترتيب السور حسب النزول، وقام بتفسير القرآن كاملا، بأسلوب جديد، معتمدا ترتيبا حديثا للسّور حسب النزول، حيث بدأ بالسور المكية ثم السور المدنية، مخالفا بذلك الترتيب المألوف للسور حسب المصحف، حيث قصد من خلال ذلك بيان حكمة التنزيل ومبادئ القرآن وقضاياه العامة؛ وقد كتب دروزة مسودة تفسيره أثناء الفترة التي قضاها بتركيا لاجئا (1941-1945).

والكتاب مطبوع، ظهرت الطبعة الأولى منه في اثنا عشرة جزءا سنة 1961 بمطبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، وله طبعة أخرى منقحة ومعدّلة وبإضافات جديدة من طرف المؤلف، أصدرتها دار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 2000.

وقد بيّن عزة دروزة الدّوافع التي دعته لاتباع هذه الطريقة في مقدّمة تفسيره، واعتبرها الأنسب لفهم كتاب الله، لأنّها تتماشى مع تسلسل الأحداث التي وقعت في عصر النّبي صلى الله عليه وسلّم منذ بداية نزول الوحي إلى نهايته، وتسهّل متابعة مراحل نزول القرآن بطريقة دقيقة، وبالتّالي تتضح لمن يتلو كتاب الله الغاية من إنزاله. [26]

ثانيا: القيمة العلمية لكتاب دروزة.

إن الكمّ الهائل من المصادر والمراجع التي اعتمدها عزة دروزة في تفسيره يدل على سعة اطلاع الرجل، وإلمامه الكبير بما يتعلق بتفسير القرآن الكريم من علوم، وهذا ما يجعل من التفسير الحديث كتابا عظيم النفع كثير الفوائد، والقارئ للتفسير يلحظ حرص صاحبه الشديد على الوقوف على المعنى الصحيح، بأسلوب يسيرٍ يستجيب لمتطلبات العصر، ويُعين على الفهم الصائب، ويبرز مبادئ القرآن السّامية وقواعده العامة، من أجل الوقوف في وجه التيارات المعادية للإسلام، وسعيا لجلب المسلمين ودعوتهم إلى الاستمساك بكتاب الله تعالى، لأنه حبل نجاتهم ومصدر عِزّهم وسؤددهم.

بيّن محمد بهجة البيطار قيمة هذا التفسير في هذه العبارة : "إن محمد عزة دروزة يفسر القرآن بالقرآن، بحيث تكون آياته في الموضوع الواحد مجموعةً في مكان واحد، ومُفسرة تفسيرا يجمع بين معانيها جمعا محكما، ومن أمعن النظر في تفسيره رأى فيه فوائد جمة، ومباحث مهمة، ونظرات ثاقبة، ونقدا بالمنقول والمعقول لبعض مروياتهم في أسباب النزول، وتفسيرا للآيات الكريمة بالظاهر المتبادر منها."[27]

ثالثا: بعض المآخذ على تفسير دروزة.

مع كل ما ذكرناه من مزايا عن التفسير الحديث، فإن الجهد البشري لا يخلو من العيب والنقص مهما حاول صاحبه أن يصل به إلى درجة الكمال، وتفسير عزة دروزة قد سُجل عليه بعض المآخذ يمكن إجمالها في الآتي:

- إن طريقة ترتيب السور حسب النزول التي اعتمدها دروزة تعد بِدْعا لم يتعارف عليها السابقون من المفسرين ولا اللاحقون، وهذا ما قد يشكل شيئا من الجرأة على كتاب الله تعالى والمساس بقدسيته، خاصة إذا فتح هذا الباب أمام أصحاب الأهواء الضالة والنوايا السيئة.

- يلاحظ استشهاده بالإسرائيليات وبكتب اليهود والنصارى خاصة عند تفسيره للقصص القرآني، وهذا دون بيان ما يخالف العقيدة الإسلامية منها (كالاعتقاد بعصمة الأنبياء عليهم السلام).[28]
- عند حديثه عن الآيات الكونية يجرِّدها من حقائقها العلمية، ويحصرها في نطاق وعظي[29].
- يلاحظ إنكاره للتفسير العلمي ولتوظيفه في بيان إعجاز القرآن الكريم وتأكيد صِدقه، حيث عدّ ذلك إخراجا للقرآن من دائرة قدسيته وغايته[30]؛ وهذا ليس صحيحا فالقرآن نزل خطابا للناس أجمعين إلى يوم الدين، ومن واجب العلماء في كل عصر ومصر الاشتغال بعلومه المتنوعة، واستلهام ما ينير سبلهم ويصلح حياتهم وينهض بأمتهم؛ والتفسير العلمي القائم على الحقائق العلمية الصحيحة، ووفق ما حدّده العلماء من قواعد وضوابط يُعدّ حاجة مُلحّة وضرورة عصريّة، خاصة في زمن كثرت فيه الكشوفات والاختراعات العلمية.
- ظاهرة أخرى شائعة في تفسيره وهي الإطناب في إيراد الشواهد المختلفة من أقوال الرسول "صلى الله عليه وسلم" والصحابة والمفسِّرين، وحتى الشواهد من كتب التاريخ وأسفار اليهود وأناجيل النصارى، لدرجةٍ تجعل القارئ يسترسل في قراءة الروايات المختلفة وينسى المعنى الذي يبحث عنه، كما فعل بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ (غافر:56)، حيث أورد تعليقا مطوَّلا استغرق عشر صفحات كاملة، حشد فيه كمًّا هائلا من المرويات، تحدث فيها عن موضوع المسيح الدجال ونزول عيسى "عليه السلام" في آخر الزمان[31]؛ وأمثلة ذلك في تفسيره لا حصر لها.

إن الطريقة التي اعتمدها دروزة في ترتيب السور كانت سببا لعدّة انتقادات وجّهها إليه العلماء أمثال الدّكتور مصطفى مسلم، حيث اعتبر هذا المنهج في التّفسير من الأمور التي جرّأت الكثير ممن يدّعى العلم على الدعوة القول إلى إعادة ترتيب المصحف حسب النزول، وهو أحد المطالب التي دعا إليها المستشرقون. [1]

المطلب الثاني: مصادر دروزة ومنهجه في التفسير.

أولا: مصادره في التفسير.

اعتمد عزة دروزة في تفسيره على مجموعة كبيرة من أمهات الكتب التي وقعت بين يديه في مكتبات تركيا ودمشق، بالإضافة إلى ما ألَّفه من كتب في التاريخ والاجتماع والسيرة؛ وهذه أبرز المصادر التي استقى منها المؤلف كلامه مُقسّمة حسب الفنون:

1.كتب التفسير وعلوم القرآن: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، جامع البيان للطبري، الكشاف للزمخشري، أحكام القرآن لابن العربي، مفاتيح الغيب للرازي، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، أنوار التنزيل للبيضاوي، البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تفسير ابن كثير، الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، إرشاد العقل السليم لأبي السعود، تفسير المنار لرشيد رضا...

2.كتب الحديث الشريف: كتب السنة الستة، مسند أحمد، موطأ مالك، مجمع الزوائد للهيثمي، كتاب منصور ناصف الذي جمع فيه أصول أحاديث الرسول ﷺ وغيرها.

3.كتب السيرة والتراجم والتاريخ: تاريخ الطبري، تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي، أسد الغابة لابن الأثير، أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم، قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار، تاريخ الإسلام للمستشرق كايتاني...

4.كتب الفقه وأصوله: إعلام الموقّعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية، مبادئ الفقه الإسلامي في العبادات لمحمد سعيد الوفي.

5.كتب أخرى: لسان العرب لابن منظور، زاد المعاد لابن قيم الجوزية، نقد الفكر الديني لصادق العظم، أسفار اليهود وأناجيل المسيحيين.

ثانيا: منهج عزة دروزة في التفسير.

قدّم دروزة لتفسيره بكتاب سمّاه "القرآن المجيد"، جعله بمثابة مقدمة مطوّلة ضمّنها جملة من علوم القرآن الهامة كتنزيل القرآن الكريم وأسلوبه وجمعه وتدوينه وترتيبه وقراءاته ومحكمه ومتشابهه وقصصه، بالإضافة إلى تعليقات على مناهج المفسرين، لينتهي بذكر الطريقة التي يراها المثلى لفهمه؛ ومحمد عزة دروزة يعد من المفسرين الذين أبانوا عن منهجهم في التفسير، حيث صرّح في مقدمة الجزء الأول من التفسير الحديث بأنه سيسير وفق الطريقة الآتية:

- الاستهلال بمقدمة أو تعريف موجز للسور قبل تفسيرها، يتضمن وصفها ومحتوياتها وأهم ميزاتها وترتيبها، وذكر ما ورد في السور المكية من آيات مدنية أو العكس؛ ووضع كذلك عناوين للموضوعات والتعليقات الهامة.
- عمل المفسّر على تقسيم المواضيع إلى عبارات كاملة المعنى، وقام ببيان معاني الألفاظ والجمل الغريبة باختصار، وقد استبعد الكلام عن المسائل المتعلّقة بعلوم اللغة كالنّحو والبلاغة والصرف، إلا إذا اقتضت الحاجة ذلك.
- قام بشرح مدلول الجمل شرحا إجماليا، مشيرا إلى الأخبار الواردة في أسباب النزول، والتعقيب عليها باختصار.
- تجلية ما تحتويه الجملة من أحكام ومبادئ وأهداف وتوجيهات تشريعية وأخلاقية واجتماعية وروحية، وملاحظة مقتضيات الحياة والمفاهيم البشرية، وهي نقطة يعتبرها جوهرية في تفسيره.

- التنبيه على الجمل والفصول الوسائلية والتدعيمية (كالقصص ومشاهد الآخرة والجن والملائكة...) وذكر ما يكون فيها من مقاصد أسلوبية كالتعقيب والتثبيت والتدعيم والترغيب والترهيب وغيرها.
- الاهتمام ببيان ما بين آيات وفصول السور من ترابط، لتجلية النظم القرآني والوحدة الموضوعية فيه.
- يقوم عزة دروزة بتجلية معاني المفردات والعبارات الغريبة التي تتكرّر في القرآن في الموضع الأوّل من ورودها بطريقة وافية، ثم يحيل القارئ إلى ذلك الموضع عند حديثه عن نظائرها.
- الاهتمام بذكر المغزى من توظيف الأساليب القرآنية، وبإيراد تعليقات على الجمل المفسّرة، مع الاستعانة في ذلك بعرض نظائر تلك الآيات في القرآن الكريم، ومثال ذلك جمعه للآيات التي تحدثت عن التوبة عند تفسير قوله تعالى:" **ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا**." الآية سورة البروج: 10. [32]

المبحث الثاني: اجتهادات دروزة التفسيرية في تفعيل السنن الإلهية في واقع المسلمين

اهتم محمد عزة دروزة في كتابه بالجانب الإصلاحي للقرآن الكريم اهتماما كبيرا، ولا عجب في ذلك، فالرجل قد عايش مرحلة سقوط الخلافة الإسلامية، وتخلّف الأمة وتفكّك أركانها، وهجمة الأعداء عليها، فكان جهده التفسيري مُنْصَبّاً بعد بيان المعنى على استخراج وسائل إصلاح المجتمعات في شتى المجالات، ولا ريب أن توظيف علم السنن الإلهية في التفسير يعد ركيزة مهمّة من ركائز الإصلاح بما يوفره من رؤية استشرافية للمستقبل.

المطلب الأول: أسلوب عزة دروزة في التعامل مع آيات السنن الإلهية.

1. عبّر عزة دروزة عن السنن الإلهية في تفسيره بعدة ألفاظ أهمّها:

- **الحِكم**: حيث قال عند حديثه عن قصة قارون الواردة في سورة القصص: "وطبيعي أن هذه **الحِكم** مستمرة المدى والشمول."[33] يقصد أن سنن الله في معاملة الجاحدين والمتجبرين والباغين في كل عصر ومصر ثابتة لا تتبدل.
- **التقريرات القرآنية: وقد استعملها في عدة مواضع منها عند تعليقه على قوله تعالى:** ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة:26)، حيث بيّن أنّ هذه الآية تؤكّد بأن سبب الضلال هو فساد أعمال العباد وسوء نواياهم، وإعراضهم عن منهج رسلهم وأنبيائهم، وهذا يتماشى مع التّقريرات القرآنيّة المحكمة والتي تثبت أنّ الله تعالى أودع في الإنسان ما يضلّ على بيّنة منه وقصد.[34]
- **سنن الله: وظّفها في عدة آيات كما في تفسير الآية:** ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾(يوسف:110)، فقد قررت الآية سنة الله تعالى في معاملة الأنبياء ومن بعثوا لهدايتهم من البشر، وبيّنت أن عادة الأقوام إنكار دعوة الرّسل وعنادهم وقتالهم لهم، وأن عادة الله نصر رسله وأنبيائه حين تنقطع بهم الأسباب والحيل.[35]

- **النواميس الكونية أو الاجتماعية:** يقصد بها القوانين، وهو الاستعمال الغالب في تعبيره عن السنن الإلهية، ومثاله ما قاله في بيان قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (البقرة: 212).

إنّ هذه الآية تحوي ردّا على السّخرية الدّائمة للكفار الذين بسطت لهم الحياة الدّنيا من المؤمنين الذين يعيشون في ضيق من العيش، وهذا لا يمثّل حبّا لله لهم وإنما هو مجرّد عطاء دنيويّ زائل، فالله قد يعطي من متاع الدنيا وزخرفها لمن يحب ولمن يبغض، بينما لا يعطي دينه إلا لأحبابه وأصفيائه من خلقه، وهذا أحد النواميس الإلهية الثابتة.

2. إن المتتبع لطريقة تعامل عزة دروزة مع آيات السنن يلاحظ أنه يفسّرها بأسلوب موجز قوي، وبلغة مؤثرة في نفس القارئ، وهو يجتهد دائما في ربطها بواقع المسلمين.

3. إنّ أغلب المواضع التي يتحدّث فيها عن آيات السنن نجدها خالية من الاستطرادات التي من شأنها التشويش على الأذهان، وكأنه يقصد إبقاء القارئ مركزا على ما يريده من معان.

4. استعماله لأسلوب الترغيب المليء بالمبشرات بإمكانية نصر الأمة على أعدائها، إن استجابت لأوامر ربها، بالإضافة إلى أسلوب الترهيب والإنذار من عواقب الطغيان والظلم والمعاصي، ومثاله ما أورده في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف: 96-99).

حيث بيّن أنّ الآيات السّابقة تشتمل على مواساة لرسول الله ﷺ، وعلى دعوة إلى إعمال العقل في التّفكير في نتائج الأعمال قبل فعلها، وإلى أخذ العبرة من أحوال الأمم السّابقة؛ فالواجب على كلّ من يقرأ هذه الآيات أن يحذر من الغفلة ومن اقتراف المعاصي التي تفضي إلى حلول سخط الله ووقوع عقوباته الشّديدة، وقد قررت ذلك الآيات بطريقة قوية وبعبارات مخيفة فكانت عبرة لمن يعتبر.[36]

المطلب الثاني: نماذج من تفسير عزة دروزة لآيات السنن.

إن المتفحِّص للتفسير الحديث يلحظ عناية صاحبه بموضوع السنن الإلهية، وبتقرير مبادئها، والحث على السير وفقها، والنماذج في الكتاب كثيرة، منها:

1. إن أوّل موضع ذكر فيه لفظ سنّة هو الآية السّابعة والثّلاثون بعد المائة من سورة آل عمران: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ... وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران: 137-140).

لقد ذكر صاحب التّفسير في شرحه لهذه الآيات أنّ الله يخاطب عباده المؤمنين ويبيّن لهم بأنّ قوانينه في معاملة الكفار ثابتة، فهو دائما يخذلهم ويعاقبهم ويهزمهم وإن كثر عددهم وعدّتهم، وقد اشتمل كتابه ما يكفي من الأخبار والمواعظ التي تحوي بشارة ووعدا للمؤمنين من جهة، وإنذارا ووعيدا للكافرين من جهة أخرى، وهذا الأمر واضح وجليّ لمن يتدبّر في أحوال السّابقين، وهو ثابت إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.[37]

بيّن الكاتب هنا بأن سنة الله في تأييد عباده ونصرهم على أعدائهم تقتضي الإخلاص لله تعالى في العمل أولا، وترتكز على الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية، كما أكّد على أن قانون النصر ثابت لا يقتصر على بيئة معينة أو عصر محدد، فكلما تحققت شروط النصر وقع بإذن الله.

2. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال:53). جاءت الآية الكريمة لتقرير حقيقة اجتماعيّة مطلقة، ولبيان منهج ربانيّ ثّابت في معاملة الله لعباده، بحيث لا يحرمهم من نعمة أنعمها عليهم إلا إن هم كفروا تلك النّعمة بدل أن يشكروها، وذلك بأنهم تحوّلوا من فعل الطاعات إلى اقتراف المعاصي؛ والأسلوب الذي وردت به الآية يؤكّد بأنها لا تقتصر على قوم دون قوم، ولا على عصر دون عصر.[38]

3. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: 11). هذه الآية الكريمة قرّرت إحدى سنن الله الاجتماعيّة الكبرى، وإن لم تعبّر عنها بلفظ سنّة، وقد أورد دروزة تعليقا على الآية مفاده أنّ كلّ تغيير قد يطرأ على أحوال النّاس، سواء من الخير واليسر إلى الشرّ والعسر، أو العكس إنّما يحدث بسبب أعمالهم وتصرّفاتهم، فإن هم أحسنوا نعّمهم الله، وإن أساءوا جعل حياتهم ضنكا.[39]

واضح أن عزة دروزة يحاول إيقاظ ضمائر المسلمين، وتنبيههم إلى ضرورة أخذ العبرة من أحوال الأمم السابقة، وما وقع عليهم من صنوف العقاب الإلهي، كما أنه يؤكد على أن ما حلّ بهم يحلّ بكل من سار على ما ساروا عليه.

4. ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ... ﴾ (النحل:112) يذكر المؤلف في تعليقه على هذه الآية الكريمة بأنّها تمثّل درسا بليغا لكل أمّة تحبّ أن تتمتع بنعم الله وتحيا حياة سعيدة يعمّها الأمن والاطمئنان والرّزق، فيكون لزاما عليها أن تستجيب لأوامر خالقها وأن تشكر نعمه، وأن تعمل على تحقيق العدل وفعل الطّاعات وترك الظّلم واجتناب المحرّمات؛ وإلا كان عاقبتها الهلاك وأقصى العقوبات.[40]

يلاحظ أن صاحب الكتاب يتكلم بلغة مليئة بالنصح والترغيبَ المقترن بالتحذير والترهيب، كل ذلك خوفا وحرصا منه على سلامة ونصرة أمته وعِزّها، كيف لا وهو قد عاصر مرحلة سقوط الخلافة الإسلامية وضعف المسلمين، وتكالب الأعداء عليهم، وكأنه يحاول أن يجعل من تفسيره منبرا يجلي فيه قوانين وأسباب النهضة والتمكين، ويحذر من عوامل الهزيمة والتنكيل.

5. ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿16﴾ ﴾ (الإسراء:16). فسّر عزة الآية بما يلي: "في الآيات تقرير رباني بأن الله تعالى إنما يهلك الأمة أو البلدة ويدمّرها بفسق زعمائها ومترفيها ووجهائها وأثريائها إذا ما اغتروا بما صار لهم من مال وجاه فكفروا بنعمة الله وانحرفوا عن طريق الحق والفضيلة، وبأن الله قد أهلك على هذا الوجه كثيرا من

الأمم والمدن من بعد نوح... والآية تنطوي على تقرير ناموس من النواميس التي أقام الله عليها المجتمعات البشرية، وهو أن المُتْرفين إذا صار لهم الأمر في بلد ما وفسقوا فيها وسكت أهل البلد عليهم استحقوا الدمار والهلاك."[41]

لا شك أن كفر الناس لنعم الله تعالى وجحودها ومقابلتها بالمعاصي والذنوب، يعد السبب الرئيس لزوال تلك النعم ولتحويلها إلى نقم وعقوبات إلهية، بل وتنتشر بينهم الآفات والأمراض التي لم تعرف فيمن قبلهم، وقد أخبر بذلك رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، حيث قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: "**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا...**"[42]

كل هذا تم الإشارة إليه من طرف عزة دروزة في هذا الموضع، والمواضع الثلاثة السابقة (الأنفال:53، الرعد:13 والنحل:112)، والملاحظ أن الكاتب في تقريره لهذا القانون الإلهي لا يحيل القارئ على ما سبق ذكره من معان، كما يفعل في غيرها من المواضيع (كالقصص والأحكام الشرعية...) التي يشير إلى معناها في الموضع الأول ثم يحيل القارئ على ذلك الموضع، بل هو يكرر تلك المعاني لتثبت وترسخ في ذهن القارئ، فيتعظ ويأخذ العبرة منها، لأنها فعلا تمثل تطبيقا عمليا للأحداث التي نعيشها في واقعنا المرير اليوم.

6. ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ... ﴾ (هود: 118، 119)، جاء في الجزء الثّالث من التفسير الحديث في صفحته الخامسة والخمسون بعد المائة الخامسة بأن الآيات أكّدت أنّ وجود الاختلاف بين البشر يمثّل قانونا إلاهيا يجعلهم مكلّفين مخيّرين ومسؤولين على

أعمالهم، وقد أوجد الله هذا الاختلاف لحكمة تقتضيه، وكان قادرا على جعل الناس متشابهين متساووين في كل المناحي، وعندها لا يتفاوتون جزاء ولا عقابا.

7. ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ... ﴾ (الروم: 20،21،22)، أورد عزة دروزة بعد تفسير الآيات تعقيبا يحثّ فيه المسلمين إلى الانتباه لقوانين الله ونواميس الكون المادّي والبشري، وإلى التّدبر والتأمّل في بديع مخلوقات الله وحسن صنعته، من أجل الوصول إلى الإيمان بوحدانيته، واليقين بعظمته، فالعلم هو الطّريق الصّحيح الموصل إلى الإيمان الحقيقي، وإلى العبوديّة الخالصة لله تعالى.[43]

8. قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٢٣﴾ ﴾ (الفتح: 22،23). لقد اقتضت حكمة الله أن تكون الأيام دول بين النّاس، وأنّ عاقبة الكفر الظّلم والاعتداء الهلاك والعقاب، وأنّ جزاء الإيمان التأييد والنّصر والتّمكين، وهذه سنّة إلهية مطردة تمثّل مواساة لكل فئة مؤمنة تقاتل الكفار، ووعدا جازما لها بالظّفر على أعدائها، إن هي أخلصت لربّها وأخذت بأسباب النصر.[44]

فهنا نجد المؤلِّف يبشر المؤمنين بنصر الله الدائم والأكيد لهم من جهة، ويحضّهم على الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية من جهة أخرى، وهذه ميزة في تعامله مع آيات السنن حيث يؤكد على عمومها واستغراقها لكل الأجناس سواء ما تعلق منها بعالم الجمادات أو المجتمعات البشرية، كما يحذر من عواقب التنكّب والإعراض عنها.

خاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبمعونته تدرك الغايات، أحمده على إعانتي في إنجاز هذا البحث، والذي خلصت في نهايته إلى النتائج الآتية:

- سنن الله هي قواعده الكلية وقوانينه العامة التي يخضع لها كل مخلوقاته، وهي تمثّل أيضا المنهج العام الثابت في معاملة الله تعالى لجميع عباده وفق أعمالهم وتصرّفاتهم.

- تعدّ الإرادة الصلبة والعزيمة القوية السبب الرئيس لوصول المرء بعد توفيق الله تعالى إلى مبتغاه الأسمى، وهذا المعنى ترجمته شخصية المفكر المناضل والأديب المؤرخ محمد عزة دروزة، حيث استطاع أن يتحدى العقبات الأسرية والاجتماعية، وكوّن شخصيته العلمية الراقية بنفسه.
- بيّن محمد عزة دروزة أن قصده من تفسير القرآن الكريم هو إظهار حكمة التنزيل ومبادئ القرآن وقضاياه العامة، كل ذلك بأسلوب يسير وترتيب حديث يستجيب لمتطلبات العصر، ويسهم في الوقوف في وجه التيارات المعادية للإسلام، وفي دعوة المسلمين للاستمساك بكتاب الله تعالى.
- يؤكد دروزة في كتابه على أن العمل وفق ما تقتضيه السنن الإلهية يضمن الوصول إلى الأهداف السامية والمقاصد الحميدة، والإعراض عنها لا شك أن عواقبه سيئة يجنيها الأفراد وتتحملها المجتمعات على المدى البعيد.
- يلاحظ عناية عزة دروزة بإسقاط هدايات آيات السنن الكونية على واقع الناس، وهي ظاهرة واضحة في تفسيره من بدايته إلى نهايته، حيث يؤكد في كل موضع على شموليتها واستغراقها لكل الأجناس والأزمان.
- إن دروزة يستنبط من آيات السنن المبشرات الإلهية بالنصر والتأييد للأمة الإسلامية، وقد كان جهده التفسيري مُنْصَبّاً بعد بيان المعنى على استخراج وسائل إصلاح المجتمعات في شتى المجالات، ولا ريب أن توظيف علم السنن الإلهية في التفسير يعد ركيزة هامّة من ركائز الإصلاح بما يوفره من رؤية استشرافية للمستقبل، لذا فقد شغل الحديث عن سنن الله تعالى حيزا كبيرا من كتابه.

ولا يفوتني في نهاية هذا البحث بأن أوصي بضرورة العناية بعلم السنن الإلهية لما له من دور فعّال في ازدهار المجتمعات وتصحيح مسارها وحتى بقائها، ويُفترض أن تُدرّس كعلم مستقل له أدواته وموضوعاته ومقاصده وثمراته، وأن يكون له نصيب في الخطب الوعظية والمجالس الإرشادية في مختلف المناسبات.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

[1] ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مادة (سنَّ)، (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر، 1979، 60/3 و61.

[2] ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مادة(سنن)، ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، 417/8.

[3] صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط:1، دار الحديث، بيروت، 1991م، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تَمرة، أو كلمة طيبَة وأنها حجاب من النار، رقم :1017، 705/2.

[4] أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، مادة (س ن)، ط:1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001، 298/12 و299.

[5] ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، (د.ط)، دار التراث، القاهرة، (د.ت)، ص:403.

[6] عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ط:1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م، ص:14/13.

[7] ينظر: خالد بن موسى الزهراني، سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم، دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، إشراف: د.سليمان الصادق البيرة، جامعة أم القرى، السعودية، 1428هـ، 2007، ص:42.

[8] ذو الكفل بن حاج محمد يوسف، السنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد السابع، جمادى الآخرة 1430هـ، ص:102/101.

[9] عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، رسالة دكتوراه، إشراف: د. عبد الحميد بوكعباش، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، 2012م، ص: 230.

[10] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط:4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004، ص: 553.

[11] ينظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبد الكريم زيدان، ص:14.

[12] ينظر: حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم (أصل الكتاب رسالة دكتوراه)، ط:2، دار الهدي النبوي، مصر، دار الفضيلة، السعودية، 2011، ص:48.

[13] محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ط:2، دار المنار، القاهرة، 1947، 139/4.

[14] ينظر: فضل حسن عباس، التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، ط:1، دار النفائس، الأردن، 2016، ج:3، ص:147.

[15] ينظر: محمد عزة دروزة، مذكرات محمد عزة دروزة، دار الغرب الإسلامي، ط:1، بيروت، لبنان، 1993، مج.1/ 45 و48.

[16] ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، المصدر نفسه، ص:46.

[17] ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، المصدر نفسه، ص: 116 و150.

[18] ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، مصدر سابق، ص: 145.

[19] ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، المصدر نفسه ص: 152 و153.

[20] ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، المصدر نفسه، ص: 150، 157.

[21] ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، المصدر نفسه، ص:157 إلى 160.

[22] ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، المصدر نفسه، ص:159، 173 و174.

[23] ينظر: التفسير الحديث، 23/10 و24، وفضل عباس، التفسير والمفسرون، 149/3 و150، ومذكرات محمد عزة دروزة، مصدر سابق، ص:204.

[24] ينظر: محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، ج:10، ص: 24 و25، وفضل حسن عباس، التفسير والمفسرون، 150/3 و151، ومذكرات محمد عزة دروزة، مصدر سابق، ص: 203 و204.

[25] ينظر: مذكرات محمد عزة دروزة، المصدر نفسه، ص:10 إلى ص:16.

[26] ينظر: محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، 9/1.

[27] محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، 8/10.

[28] ينظر: فضل حسن عباس، التفسير والمفسرون، 240/3، ومحمد عزة دروزة، التفسير الحديث، 381/4،382 و389.

[29] فضل حسن عباس، التفسير والمفسرون، المصدر نفسه، ج240/3.

[30] ينظر: عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتجاهات التفسير في العصر الراهن، ط:3، مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، الأردن، 1982، ص:308، والتفسير الحديث، مصدر سابق، 190/2 و191، (إنكاره لربط مفهوم قوله تعالى: "**بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُسَوِّيَ بَنَانَهُ.**" بفن بصمات الأصابع الحديث)، و31/3 و32، (إنكاره لاستنباط قواعد علمية كونية أو تطبيق نظريات علمية وربطها بمعنى قوله تعالى: "**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لهَا.**")

التّفاسير حسب ترتيب النّزول في الميزان، مصطفى مسلم، بحث قدم في ملتقى للتّفسير وعلوم القرآن بالرّياض، بتاريخ:15 ذي الحجة 1432هـ الموافق 2011/11/11م على السّاعة: 8:53، اطّلع عليه يوم: الأربعاء 01 نوفمبر 2023 على السّاعة: 22:01.

[31] ينظر: التفسير الحديث، مصدر سابق، 380/4 إلى ص:389.

[32] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 151/2، 152 و153.

[33] التفسير الحديث، المصدر نفسه، 345/3.

[34] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 151/6.

[35] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 32/3.

[36] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 430/2 و431.

[37] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 233/7، 234 و237.

[38] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 72/7.

[39] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 525/5 و526.

[40] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 195/5.

[41] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 370/3 و371.

[42] سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، كتاب: الفتن، باب: العقوبات، رقم: 4019، 1332/2.

[43] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 439/5.

[44] ينظر: التفسير الحديث، المصدر نفسه، 607/8.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.

أحمد بن الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط:1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2001، ج:12.

ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط:1، دار الكتب العلمية، بيروت، 2000، ج:8.

ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (د.ط)، دار الفكر للطباعة والنشر، 1979، ج:3.

ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، (د.ط)، دار التراث، القاهرة، (د.ت).

حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم (أصل الكتاب رسالة دكتوراه)، ط:2، دار الهدي النبوي، مصر، دار الفضيلة، السعودية، 2011.

سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي، ج:2.

صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط:1، دار الحديث، بيروت، 1991م، ج:2.

عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ط:1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993م.

عبد المجيد عبد السلام المحتسب، اتجاهات التفسير في العصر الراهن، ط:3، مكتبة النهضة الإسلامية، عمان، الأردن، 1982.

فضل حسن عباس، التفسير والمفسرون أساسياته واتجاهاته ومناهجه في العصر الحديث، ط:1، دار النفائس، الأردن، 2016، ج:3.

مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط:4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004.

محمد رشيد بن علي رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ط:2، دار المنار، القاهرة، 1947، ج:4.

محمد عزة دروزة، التفسير الحديث، ط:2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، الأجزاء 10 منه.

حمد عزة دروزة، مذكرات محمد عزة دروزة، ط:1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993، المجلد الأول.

الرسائل الجامعية:

أيمن بن نبيه بن غنام المغربي، السنن الإلهية في تغيير المجتمعات في ضوء القرآن الكريم، جمعًا ودراسة، رسالة ماجستير، إشراف: أ.د محمد بن عمر بازمول، جامعة أم القرى، السعودية، 1427هـ /1428هـ.

خالد بن موسى الزهراني، سنة التدافع في ضوء القرآن الكريم، دراسة موضوعية، رسالة ماجستير، إشراف: د.سليمان الصادق البيرة، جامعة أم القرى، السعودية، 1428هـ، 2007.

عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، رسالة دكتوراه، إشراف: د. عبد الحميد بوكعباش، جامعة الحاج الأخضر، باتنة، 2012م.

المقلات:

ذو الكفل بن حاج محمد يوسف، السنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد السابع، جمادى الآخرة 1430هـ.